﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾ [البقرة: 146]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـمُـكـابِـرونَ يَرْفُضُونَ الحَقَّ ويتَّبِعونَ الهَوى

لـمّا بَيَّنَ في الآيَةِ السّابِقَةِ أَنَّ عمومَ أهل الكتاب لَنْ يَتَّبِعوا قِبْلَةَ الإِسْلام، ولا هُمْ يَتَّبِعونَ قِبْلَةَ بَعْضٍ، ونَهى النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَتَّبِعَ أَهْواءَهُم، لأَنَّها سَوْفَ تَعْصِفُ بدَعْوَتِه، ودينُ اللهِ يَقومُ عَلى مُرادِ اللهِ، لا عَلى أَهْواءِ البَشَرِ، أَرادَ أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّهُمْ لَمْ يَتَّبِعوا قِبْلَةَ الإِسْلام، لَيْسَ من بابِ الجَهْلِ، بَلْ هُمْ يَعْلَمونَ ذَلِكَ الحَقَّ، ولَكِنَّهُمْ يُكابِرونَ ويُعانِدونَ، وأَشارَ إلى ذَلِكَ في قَوْلِه: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾ [البقرة: 145]، وفي هَذِهِ الآيَةِ أعطى مثالًا بيِّنًا، هو العلَّةُ الحقيقيَّةُ في عدمِ اتِّباعِ الحقِّ؛ لتكونَ الآيةُ كالمثلِ السَّائرِ في أنَّ المعرفةَ المحضةَ وحدَها غيرُ كافيةٍ في القَبولِ، بل لا بدَّ معها من متابعةٍ واتِّباعٍ، فبَيَّنَ أَنَّهُمْ يَعْلَمونَ الحَقَّ، ولَكِنَّهُمْ يَتَّبِعونَ الهَوى.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

مَـنْ أوتِيَ النُّورَ الـمُبينَ، ضَمِنَ المَصيرَ المَكينَ

1) ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾: (أُوتُوا): مِنَ الجذرِ (أتي)، وهُوَ مِنْ: أَتَيْتُ الماءَ: سَهَّلْتُ سَبيلَهُ ليَخْرُجَ إلى مَوْضِعٍ[1]، وأَصْلُ المعنى: وُصولٌ إلى مَكانٍ بتَهْيِئَةٍ أَوْ قُوَّةٍ تُزيلُ ما يَعوقُ[2] والإيتاءُ: الإعْطاءُ، فأَتَيْنا: جِئْنا، وآتَيْنا: أَعْطَيْنا[3]، (أَتَيْتَ بـ) من أَتى، بمَعْنى: جِئْتَ بـ، و(أُوتوا) من آتى، بمعنى: أُعْطُوا.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (أتي).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أتي).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (أتي).

الكِتابُ المُبِينُ هُدًى وعِصْمَةٌ

2) ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مِنَ الجذرِ (كتب)، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى جَمْعِ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ، من ذَلِكَ: الكِتابُ والكِتابَةُ[1]، وهيَ إلصاقُ بدِقَّةٍ وقُوَّةٍ: كإلْصاقِ جانِبَيْ شَقِّ القِرْبَةِ وفَتْحَةِ المِنخرِ بالخَرَزِ والخَزْمِ[2]، ومن ذَلِكَ: الكِتابَةُ المَعْروفَةُ فهيَ إلصاقُ الكَلامِ بتَثْبيتِ رُموزِهِ في وجْهِ مادَّةٍ قَوِيَّةٍ: حَجَرٍ أَوْ جِلْدٍ، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البقرة: 282] مِنَ الكِتابَةِ بالمَعْنى المَشْهورِ، ومن ذَلِكَ الإلْصاقُ جاءَتْ بمَعْنى الإلْزامِ والفَرْضِ، قالَ تَعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: 183]، أَيْ أُلصِقَ بكُمْ وأُلْزِمْتُم، وسائِرُ ما في القُرْآنِ مِنَ التَّرْكيبِ فهُوَ - عَدا كُتُبِ اللهِ المُنَزَّلَةِ - بمَعْنى الفَرْضِ أَوِ القَضاءِ بأَمْرٍ، والتَّسْجيلِ كِتابَةً أَوْ في كِتابٍ.

والمعنى في: ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: الكُتُبُ المُنَزَّلَةُ في بَني إسْرائيلَ.

مَنْ عَرَفَ الحَقَّ، التَزَمَ بنَهْجِهِ

3) ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾: مِنَ الجذرِ (عرف)، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ على تَمَيُّزِ أَعْلى الشَّيْءِ أَوْ ظاهِرِهِ، بمَلْمَحٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ أَوْ عَلى أَمْرٍ فيهِ، كعُرْفِ الدِّيكِ والفَرَسِ، ومِنْهُ عُرْفُ الرَّمْلِ والجَبَلِ: أَعاليهِ، والعُرْفُ: النَّخْلَةُ أَوَّلَ ما تُطْعِمُ، كأَنَّهُمْ نَظَروا إلى ظُهورِ البُسْرِ الأَحْمَرِ في أَعْلاها لأَوَّلِ مَرَّةٍ، وعَرَفاتٌ: المُرْتَفِعاتُ الكَثيرَةُ المُنْتَشِرَةُ، قال تَعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ﴾ [الأعراف: 46]، وحِجابٌ أَيْ سورٌ، أَيْ عَلى أَعْرافِ السُّورِ، ومِنَ العُلُوِّ: عَريفُ القَوْمِ: سَيِّدُهُم، ومِنْهُ العَرْفُ: الرِّيحُ الطَّيِّبَةُ، تَسْطَعُ فوْقَ الشَّيْءِ وتَدُلُّ عَلَيْهِ[3].

البَشَرُ فَريقانِ مُخْتَلِفانِ، وكُلٌّ إناءٍ بالَّذي فيهِ يَنْضَحُ

4) ﴿فَرِيقًا﴾: مِنَ الجذرِ (فرق)، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ عَلى تَمْييزٍ وتَزْييلٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ[4]، وفَصْلِ بَعْضِ شَيْءٍ أَوْ أَشْياءَ من بَعْضِها

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كتب).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كتب).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عرف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرق).

الآخَرِ، فصْلًا واصِلًا إِلَى العُمْقِ: كالفَرْقِ بَيْنَ النَّخْلَتَيْنِ، والعُرْفَيْنِ، والشَّعَرِ، وهُوَ واصِلٌ إلى المَنْبَتِ[1].

والفُرْقانُ: كِتابُ اللَّهِ -تَعالى- فرَقَ بِهِ بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، والفُرْقانُ: الصُّبْحُ، سُمِّيَ بذَلِكَ لِأَنَّهُ يَفْرِقُ بَيْنَ اللَّيْلِ والنَّهارِ، ويُقالُ لِأَنَّ الظُّلْمَةَ تَتَفَرَّقُ عَنْهُ[2]، فهُوَ يَدُلُّ عَلى انْقِسامٍ، ومِنْهُ انْقِسامٌ وانْفِصالٌ عَنِ المَجْموعِ.

والمَعْنى في الآيَةِ: جَماعَةٌ مِنَ اليهود، والفَريقُ: الجَماعَةُ المُنْفَرِدَةُ عَنْ آخَرينَ.

مَنْ كَتَمَ عِلْمًا أَلْجَمَهُ اللهُ بلجامٍ مِنْ نارٍ

5) ﴿لَيَكْتُمُونَ﴾: مِنَ الجذْرِ (كتم)، وكَتَمَ السِّقاءُ: أَمْسَكَ ما فيهِ مِنَ اللَّبَنِ والشَّرابِ، وسَحابٌ مُكْتَتِمٌ: لا رَعْدَ فيهِ، وخَرْزٌ كَتيمٌ: لا يَنْضَحُ الماءَ، وقَوْسٌ كَتومٌ: لا تُرِنُّ[3]، وأَصْلُ المادة يَدُلُّ عَلى إِخْفاءٍ وسَتْرٍ[4]؛ من ذَلِكَ: كَتَمْتُ الحَديثَ كَتْمًا وكِتْمانًا، قالَ اللَّهُ تَعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النّساء: 42] والنّاقَةُ الكَتومُ، والجَمَلُ الكَتيمُ، لا يَصْدُرُ عَنْهُما الرُّغاءُ المُعْتادُ من غَيْرِهما، فكَأَنَّ مَنْفَذَ الرُّغاءِ مَسْدودٌ[5]، ومن ذَلِكَ (كَتَمَ السِّرّ) سَتَرَهُ وأَخْفاهُ، كَتَمَ العِلْمَ والشَّهادَةَ، وكُلُّ ما في القُرْآنِ مِنَ الجذْرِ، فهُوَ بمَعْنى حَبْسِ الكَلامِ عَمّا في القَلْبِ؛ من شَهادَةٍ أَوْ عِلْمٍ أَوْ فِكْرٍ[6].

العِلْمُ الاعْتِقادُ الجازِمُ المُطابِقُ للواقِعِ

والمعنى في الآيَةِ: مَنْعُ العِلْمِ والشَّهادَةِ وإِخْفاؤهما.

6) ﴿يَعْلَمُونَ﴾: مِنَ الجذْرِ (علم)، العَلامَةُ والعَلَمُ: شيءٌ يُنْصَبُ

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فرق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرق)، محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فرق).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (كتم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كتم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كتم).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كتم).

في الفَلَواتِ تَهْتَدي بهِ الضّالَّةُ[1]، وهُوَ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلى: أَثَرٍ بالشَّيْءِ يَتَمَيَّزُ بهِ عَنْ غَيْرِهِ[2]، واسْتُعْمِلَ اللَّفْظُ في كُلِّ ما يَدُلُّ عَلى شَيْءٍ ما، والعِلْم: "الاعْتِقادُ الجازِمُ الثّابِتُ المُطابِقُ للواقِعِ، أَوْ هُوَ صِفَةٌ توجِبُ تَمْييزًا لا يَحْتَمِلُ النَّقيضَ"[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الجُحودُ عَمًى في البَصائِرِ لا في الأَبْصارِ

يُخْبِرُ اللّهُ تَعالى بكَلامٍ مُسْتَأْنَفٍ، عَنْ طائِفَةٍ من أَهْلِ الكِتابِ، وهُمُ الأَحْبارُ وأَهْلُ العِلْمِ مِنْهُمْ، أَنَّهُمْ قَدْ ظَهَرَتْ لَهُمُ العَلاماتُ البارِزَةُ، الَّتي تُبَيِّنُ لَهُمْ صِدْقَ النَّبِيِّ محمد ﷺ؛ وهَذِهِ العَلاماتُ مَعْروفَةٌ لَهُم، ثابِتَةٌ في كُتُبِهِم، فعَرَفوهُ ومَيَّزوهُ مِثْلَ تَمْييزِهِمْ أَبْناءَهُم، لا يَخْتَلِطونَ عَلَيْهِمْ مَعَ غَيْرِهِم، ولا يَشْتَبِهونَ فيهم، وإِنَّ هَؤُلاءِ الأَحْبارَ فريقانِ: فريقٌ مِنْهُمْ قَدْ آثَروا مَنْعَ الحَقِّ وكَتْمَهُ، فلا يَنْشُرونَهُ ولا يَشْهَدونَ بما عِنْدَهُمْ من عِلْمٍ، وقَدْ قاموا بذَلِكَ، وهُمْ يَعْلَمونَ أَنَّهُمْ يُخالِفونَ ما أُمِروا بِهِ، ويَعْلَمونَ أَنَّهُمْ يَمْنَعونَ الحَقَّ، ويُضِلُّونَ النّاسَ، لمُكابَرَةِ أَهْلِ الكِتابِ: فهُمْ يَعْرِفونَ في قَرارَةِ أَنْفُسِهِمْ صِحَّةَ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، وكَوْنَ ما فعَلَهُ حَقّا كما يَعْرِفونَ أَبْناءَهُم، والفريق الآخر يَكْتُمونَ الحَقَّ، وهُمْ يَعْلَمونَهُ حَقَّ العِلْمِ، وإِنَّ الحَقَّ هُوَ ما أَوْحى اللّهُ بِهِ، فلا مَحَلَّ للارْتِيابِ والتَّرَدُّدِ في اتِّباعِهِ[4].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

حُسنُ الاِسْتِئْنافِ الابْتِدائِيِّ:

سُطُوعُ نورِ معرفةِ رسولِ الله ﷺ يحسُنُ مَعَه الاستئنافُ

قَوْلُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾: الآيَةُ اسْتِئْنافٌ ابْتِدائِيٌّ، وفَصْلٌ عَنْ سابِقِها، فأَرادَ أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (علم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (علم).
(4) محمد دروزة، التّفسير الحديث: 6/252.

المَعْنى المُضَمَّنَ في الآيَةِ، هُوَ حَقيقَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ، لا يُؤَثِّرُ عَلى صِفَتِها تِلْكَ وُجودُها وكَيْنونَتُها، في سِياق ما، فمَعْرِفَتُهُمُ النَّبِيَّ ﷺ بصِفاتِهِ جاءَتْ بكَلامٍ مُسْتَأْنَفٍ للتَّأْكيدِ عَلَيْهِ، والفَصْلِ بَيْنَ هَذا الكَلامِ وما قَبْلَهُ؛ لأنّ "الآياتِ السّالِفَةَ ورَدَتْ في شَأْنِ القِبْلَةِ، وهَذِهِ في شَأْنِ نَفْسِهِ صَلَواتُ اللّهِ عَلَيْهِ، فلَيْسَ بَيْنَهُما مُناسَبَةٌ[1]، ومن ثَمَّ ابْتَدَأَ بقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ﴾ من غَيْرِ عاطِفٍ"[2]، فلَوْ رَجَعَ الضَّميرُ إلى المَذْكورِ السّابِقِ لأَوْهَمَ نَوْعَ اتِّصالٍ ولَمْ يَحْسُنْ ذَلِكَ الحُسْنَ[3].

أُسْلوبُ اعْتِراضِ الاِسْتِطْرادِ:

معرفةُ القبلةِ كمعرفةِ رسولِ اللهِ ﷺ، والموقفُ منهما إنكارٌ نابعٌ من استكبار

هَذِهِ الآيَةُ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾، وقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾، ذَلِكَ أَنَّها ظاهِرَةُ الاِتِّصالِ، وما بَيْنَهُما اسْتِطْرادٌ واِطْنابٌ، والدَّليلُ عَلى أَنَّ الآيَةَ تَحْوي اسْتِطْرادًا، وُرُودُ قَوْلِهِ تَعالى بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: 148]، فقَدْ عادَ السِّياق إلى الكَلامِ عَنِ اسْتِقْبالِ القِبْلَةِ، ومَسْأَلَةِ الجِدالِ الَّذي اسْتَشْرى، مُتَزامِنًا مَعَ قَضِيَّةِ تَحْويلِ القِبْلَةِ[4]، وفائِدَةُ هَذا الاِعْتِراضِ بالاِسْتِطْرادِ، تَأْكيدُ أَنَّهُمْ يَتَّبِعونَ الأَهْواءَ، كما ذُكِرَ في الآيَةِ السّابِقَةِ، ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾، حَيْثُ بَيَّنَ في هَذا الاِعْتِراضِ، أَنَّهُمْ يَعْرِفونَ النَّبِيَّ ﷺ، مَعْرِفَةً قاطِعَةً لا يَشوبُها شَكٌّ، ومَعَ ذَلِكَ، فإِنَّهُمْ يُكابِرونَ ويُعانِدونَ، فهم كذلك في شأنِ القبلةِ سواءً بسواء.

أثرُ معنى الكلامِ في تعيينِ مرجعِ الضَّميرِ في قَوْلِهِ: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾:

حصولُ الشُّهرةِ يُغني عن الإفْصاحِ عن صَاحِبِ الضَّميرِ بحسبِ السِّياقِ

المعرفةُ المُرادَةُ في الآيَةِ هي معرفةُ رسولِ ﷺ، فالضَّميرُ عائِدٌ

(1) الطّيبي، فتوح الغيب: 3/150.

(2) ليس المراد بالمناسبة هنا علل الترتيبِ في علم المناسبات، وإنّما المناسبة الموضوعيّة، أي أنَّ كلَّ مقطع في موضوعٍ، وهذا لا ينفي المناسبة التي تُعنى بالترتيب بين الآيات والمقاطع.

(3) الطّيبي، فتوح الغيب: 3/150.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/39، الطّيبي، فتوح الغيب: 3/151.

لَهُ، "وجازَ الإِضْمارُ، وإِنْ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ ذِكْرٌ، لأَنّ الكَلامَ يَدُلُّ عَلَيْهِ، ولا يَلْتَبِسُ على السّامِعِ، ومِثْلُ هَذا الإِضْمارِ، فيهِ تَفْخيمٌ وإِشْعارٌ بأَنَّهُ لشُهْرَتِهِ وكَوْنِهِ عَلَمًا، مَعْلومٌ بغَيْرِ إِعْلام"[1]؛ فالحُضورُ الاعْتِباريُّ[2] هُوَ المُعْتَبَرُ في مَرْجِعِ الضَّميرِ في الآيَةِ؛ لأَنَّها لا تَتَضَمَّنُ لَفْظًا صَريحًا، صالِحًا لِأَنْ يَكونَ مَرْجِعًا للضَّميرِ.

ومَعْنى ذَلِكَ أَنَّ النَّبِيّ ﷺ، لشِدَّةِ حُضورِهِ في أَذْهانِ السّامِعينَ، ولِشُهْرَةِ ذِكْرِهِ بَيْنَ النّاسِ، وكَوْنِهِ يَجْري في حَديثِهِمْ - وما زالَ - فهُوَ مُتَعَلِّقٌ في العُقولِ والنُّفوسِ دائِمًا، فإِنَّ ذَلِكَ الحُضورَ الذِّهْنِيَّ يُغْني عَنْ ذِكْرِهِ بلَفْظِهِ، فأُضْمِرَ بذَلِكَ الاعْتِبارِ، وهَذا فيهِ مُبالَغَةٌ وتَأْكيدٌ على عُلُوِّ مَكانَةِ النَّبِيِّ ﷺ.

ولا يَجوزُ أَنْ يَعودَ الضَّميرُ على القِبْلَةِ؛ فالضَّميرُ المَنْصوبُ في ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾، لا يَعودُ إلى تَحْويلِ القِبْلَةِ؛ لأَنَّهُ لَوْ كانَ كذَلِكَ، لصارَتِ الجُمْلَةُ تَكْريرًا لمَضْمونِ قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: 144].

ولا يَجوزُ أَنْ يَكونَ المُرادُ القُرْآنَ؛ لأَنَّ الحَديثَ في السِّياقِ لا يُشيرُ إِلَيْهِ، ولَوْ كانَ الضَّميرُ عائِدًا على القُرْآنِ، لَوَجَبَ أَنْ يُقالَ: (يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ التَّوْراةَ)؛ رِعايَةً للْمُناسَبَةِ، فلَمّا قيلَ: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾، عُرِفَ أَنَّ الضَّميرَ للرَّسولِ[3] ﷺ.

وقَدْ يَرِدُ أَنَّ الآياتِ السّابِقَةَ قَدْ وَرَدَ فيها ذِكْرٌ للنَّبِيِّ ﷺ، فكَيْفَ يُقالُ: لَمْ يَجْرِ لَهُ ذِكْرٌ سابِقٌ؟ ومن ذَلِكَ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾، وقَوْلُهُ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾، وقَوْلُهُ: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾، وقَوْلُهُ: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، وقَوْلُهُ: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾.

والجَوابُ عَنْهُ: أَنَّهُ قَدْ تَقَرَّرَ أَنَّ الآيَةَ، اسْتِئْنافٌ وابْتِداءٌ في كَلامٍ جَديدٍ، فهُوَ فَصْلٌ عَنِ الحَديثِ السّابِقِ، فالمُرادُ "عَدَمُ سَبْقِ ذِكْرِهِ، في الكَلامِ المُبْتَدَإِ المُنْقَطِعِ عَمّا قَبْلَهُ، ومَعَ ذَلِكَ رَجَعَ الضَّميرُ إِلَيْهِ، لأَنَّهُ لِعُلُوِّ شَأْنِهِ وجَلالَةِ قَدْرِهِ، لا يَغيبُ عَنِ الأَذْهانِ، ولا

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/204.

(2) الحضور الاعتباريّ: أريدُ به أن يعتبر حضور الشّخص في الذّهن، فيغني عن ذكره لفظًا، لصحّة الإضمار، لشهرته أو مكانته ورتبته، فيجوز الإضمار عنه، باعتبار حضوره ذهنًا، كما في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ [القدر: 01]، وقوله: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [الأنعام: 20].

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/150.

يَلْتَبِسُ المُرادُ عَلى السّامعينَ، ومِثْلُ هَذا الإِضْمارِ، فيهِ تَفْخيمٌ لشَأْنِ المُرْجَعِ إِلَيْهِ، وإِشْعارٌ بِأَنَّهُ لشُهْرَتِهِ مَعْلومٌ بغَيْرِ سَبْقِ ذِكْرِهِ"[1].

بَلاغَةُ أُسلوبِ الإِلْتِفاتِ:

تَأْكيدُ ذِكْرِ النُّبُوَّةِ المُصْطَفاةِ في التَّوْراةِ بالأوصافِ المعهودةِ

ورَدَ ذِكْرُ النَّبِيِّ ﷺ، بصيغَةِ الخِطابِ في الآياتِ السّابِقَةِ: ﴿ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾، ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾، ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾، ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾، فالإِتْيانُ بالضَّميرِ الغائِبِ في قَوْلِهِ: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ﴾، هُوَ مِنَ الإِلْتِفاتِ، وَهُوَ عَلَى تَقْديرِ مُضافٍ أَيْ: يَعْرِفُونَ صِدْقَهُ[2].

وفائِدَةُ الإِلْتِفاتِ عَنِ الخِطابِ إلى الغَيْبَةِ، في هَذا المَوْضِعِ؛ الإِيذانُ بأَنَّ المُرادَ لَيْسَ مَعْرِفَتَهُمْ لَهُ ﷺ، من حَيْثُ ذاتُهُ ونَسَبُهُ، بَلْ من حَيْثُ كَوْنُهُ مَذْكورًا في الكِتابِ، مَنْعوتًا بالنُّعوتِ الَّتي من جُمْلَتِها: أَنَّهُ يُصَلِّي إلى القِبْلَتَيْنِ، كأَنَّهُ قيلَ: (الَّذينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ يَعْرِفُونَ مَنْ وصَفْناهُ فِيهِ)[3].

بلاغةُ تشبيهِ المَعْرِفَةِ النَّظَرِيَّةِ البُرْهانِيَّةِ بالمعرفةِ الحسيَّةِ المشَاهدة:

القطعُ بمعرفةِ اليهودِ للنَّبيِّ وأنَّه الرَّسولُ الخاتَم

جيءَ بحرفِ (الكاف) المُفيدِ للتَّشْبيهِ، ورُكْنا التَّشْبيهِ مَعْرِفَتُهُمُ النَّبِيَّ المُرْسَلَ ﷺ، ومَعْرِفَتُهُمْ أَبْناءَهُم، فالمَعْنى أَنَّهُمْ يَعْرِفونَ النَّبِيَّ ﷺ، مَعْرِفَةً واضِحَةً، كمَعْرِفَةِ أَبْنائِهِمُ الَّذينَ من أَصْلابِهِم؛ فهُوَ تَشْبيهٌ مُرْسَلٌ[4].

وقد قارنَ الشِّهابُ بين المعرفتين؛ إحداهما مشبَّهٌ بها والأخرى مشبّهةٌ، فقال: "المَعْرِفَةُ المُشَبَّهَةُ نَظَرِيَّةٌ، والمَعْرِفَةُ المُشَبَّهُ بها قَطْعِيَّةٌ ضَرورِيَّةٌ، مُسْتَنِدَةٌ إلى المُشاهَدَةِ والإِحْساسِ، والمَعْرِفَةُ

(1) زاده، حاشية على البيضاوي: 2/373.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/39.
(3) محمد صديق خان، فتح البيان في مقاصد القرآن: 1/310.
(4) التّشبيهُ المرسل والتّشبيه المؤكّد: ينقسم التّشبيه باعتبار أداته إلى: أولًا: التّشبيه المرسل: وهو ما ذكرت فيه أداة من أدوات التّشبيه، كقوله: "إنّما الدّنيا كبيتٍ نسجُه من عنكبوت"، ثانياً: التّشبيه المؤكّد: وهو ما حُذفت منه أداته، كقوله: "أنت نجمٌ في رفعة وضياءٍ"، ينظر: السيد الهاشمي: جواهر البلاغة، ص: 238، وينظر أيضا حبنّكة الميدانيّ، البلاغة العربيّة: 2/173.

الضَّروريَّةُ أَقْوى مِنَ المَعْرِفَةِ النَّظَرِيَّةِ البُرْهانِيَّةِ، وإِنْ كانَتْ كُلُّ واحِدَةٍ مِنْها قَطْعِيَّةً، فلِذَلِكَ جُعِلَتِ الأولى مُشَبَّهًا بها للثّانِيَّةِ"[1].

فأهلُ الكتابِ يَعْرِفونَ النَّبيَّ ﷺ بأَوْصافِهِ، من كَوْنِهِ نَبِيًّا، وكَوْنِهِ هُوَ المَوْعودَ ببَعْثَتِهِ في كُتُبِهِم، وكَوْنِهِ مِنَ الصّادِقينَ في تبليغِهِ عنِ اللهِ، فإِنَّهُمْ كانوا يَعْرِفونَهُ بهَذِهِ الأَوْصافِ؛ لأَنَّهُمْ شاهَدوا بأُمِّ أَعْيُنِهِمْ ما خَلَقَ اللهُ في يَدِهِ مِنَ المُعْجِزاتِ، مَعْرِفَةً لا يَشوبُها اشْتِباهٌ، ولا يَعْرِضُ لَها التِباسٌ، وهُمْ في مَعْرِفَتِهِمْ تِلْكَ يَعْرِفونَهُ كما يَعْرِفونَ أَبْناءَهُمْ بذَواتِهِم وأَشْخاصِهِم، مُمَيَّزينَ عَنْ سائِرِ الغِلْمانِ، إِذا رَأَوْهُمْ مُخْتَلِطينَ مَعَهُم، وفائدةُ هذا التَّشبيه القطعُ بمعرفةِ اليهودِ للنَّبيِّ ﷺ، وأنَّه الرَّسولُ الخاتم، وأنَّ العبرةَ ليست في المعرفةِ بل بالعملِ بمقتضاها، ولـمَّا لم تُفِدْهم معرفتُهم أُلحِقَ بهم الذَّمُّ.

إيثارُ التَّشْبيهِ عَلى أسلوبِ الإِخْبارِ في التَّعْبيرِ:

إبـرازُ جماليَّة التَّشْبيهِ والمُبالَغَةُ في وَصْفِ المَعْرِفَةِ

سَبَقَ أَنْ استُعمِلَ أُسلوبُ الخبرِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ﴾ [البقرة: 144]، وهَذا خَبَرٌ مُؤَكَّدٌ، فلسائلٍ أن يسألَ عن إيثارِ التَّشبيه على الخبرِ في هذه الآيةِ؟

والجوابُ: أنَّ للتَّشْبيهِ جَماليَّةً في التَّعْبيرِ، مَعَ المُبالَغَةِ والتَّأْكيدِ، والجَمالُ في التَّشْبيهِ يَأْتي من إِعْمالِ الفِكْرِ في الرَّبْطِ بَيْنَ المُشَبَّهِ والمُشَبَّهِ بِهِ، والنَّظَرِ في الصِّفَةِ المُشْتَرَكَةِ بَيْنَهُما، وهَذا اسْتِدْعاءٌ للذِّهْنِ أَنْ يَتَأَمَّلَ النَّصَّ ويَتَفاعَلَ مَعَهُ، فلذا كانَ في الإِنْشاءِ فنٌّ وجَمالٌ، فهُوَ لا يَسْلُكُ مَسْلَكَ الخَبَرِ في إِثْباتِ المَعْلومَةِ، بطَريقِ المُباشَرَةِ الخالي مِنَ التَّفاعُلِ بَيْنَ النَّصِّ والسّامِعِ، فلذا كان التَّشْبيهُ هُنا مُفيدًا تَأْكيدَ مَعْرِفَتِهِم، "والغَرَضُ من هَذا التَّشْبيهِ المُبالَغَةُ في وصْفِ المَعْرِفَةِ[2]، فهُوَ تَشْبيهٌ يُفيدُ اليَقينَ في المَعْرِفَةِ؛ فإِنَّ الإِنْسانَ لا يُمْكِنُ أَنْ يَجْهَلَ ولَدَهُ الَّذي يَعْرِفُ نَسَبَهُ ساعَةً من زَمانٍ ما دامَ عاقِلًا مُدْرِكًا، وقَدْ يَجْهَلُ نَفْسَهُ، في الوَقْتِ الَّذي لَمْ يَكُنْ قَدْ بَلَغَ

(1) زاده، حاشية على البيضاويّ: 2/374.

(2) ابن جزي، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/100.

فيهِ سِنَّ التَّمْييزِ، فكَما أَنَّ الَّذينَ أوتوا الكِتابَ، لا يُمْكِنُ أَنْ يَجْهَلوا أَبْناءَهُمُ الّذينَ من أَصْلابِهِمْ؛ فكَذلِكَ لا يَجْهَلونَ الرَّسولَ الأَمينَ[1]، ليَدُلّ عَلى جَلاءِ مَعْرِفَتِهِمْ وتَحَقُّقِها"[2].

ولَوْ أَخْبَرَ لاحْتَمَلَ الخَبَرُ الصِّدْقَ والكَذِبَ، ولدَفْعِ هَذا الاحْتِمالِ، يُؤتَى بالمُؤَكِّداتِ لِيَكُونَ النَّصُّ بنحو: (وإِنَّ الَّذينَ أوتوا الكِتابَ لَيَعْرِفونَ أَنَّهُ صادِقٌ)، وبذَلِكَ يَكونُ الكَلامُ مُباشِرًا مُقَرِّرًا، خالِيًا من جَماليَّةِ التَّشْبيهِ، الَّتي تَتَضَمَّنُ التَّأْكيدَ والمُبالَغَةَ الَّتي يَقْتَضيها المَقامُ.

توجيهُ المخصُوصِ بالذِّكر:

وُرودُ التَّشْبيهِ بالأَوْلادِ، لأَنَّهُمْ حُشاشَةُ الأَكْبادِ

اخْتارَ في الآية، أَنْ يَكونَ المُشَبَّهُ بِهِ، هُوَ مَعْرِفَةَ الأَبْناءِ، وخَصَّصَ الأَبْناءَ بالذِّكرِ فلَمْ يَقُلْ مَثَلًا: (بَناتِهِم، أَوْ أَوْلادَهُم، أَوْ أَنْفُسَهُمْ)؟ والجَوابُ عَلى ذَلِكَ: راجِعٌ لكَوْنِ الذُّكورِ أَشْهَرَ وأَعْرَفَ عِنْدَهُمْ من البنات، وهُمْ بصُحْبَةِ الآباءِ أَلْزَمُ، وبقُلوبِهِمْ أَلْصَقُ؛ فإِنْ قيلَ: لِمَ لَمْ يَقُلْ: (كَما يَعْرِفونَ أَنْفُسَهُمْ)؟ مَعَ أَنّ مَعْرِفَةَ الشَّخْصِ نَفْسَهُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ من مَعْرِفَةِ سائِرِ الأَشْياءِ؟ فالجَوابُ: لأَنَّ الإِنْسانَ لا يَعْرِفُ نَفْسَهُ إِلّا بَعْدَ انْقِضاءِ بُرْهَةٍ من دَهْرِهِ، ويَعْرِفُ ولَدَهُ من حينِ وُجودِهِ[3]، وخَصَّ الأَبْناءَ لشِدَّةِ تَعَلُّقِ الآباءِ بِهِمْ؛ فيَكونُ التَّمَلِّي من رُؤْيَتِهِمْ كَثيرًا، فتَتَمَكَّنُ مَعْرِفَتُهُمْ[4].

وكذلك مُلاحَظَةُ الجِنْسِ المُناسِبِ، وهُوَ الذُّكورَةُ؛ وذَلِكَ لتَحْقيقِ المُناسَبَةِ، وهَذِهِ عِلَّةٌ لَفْظِيَّةٌ ولَيْسَ دَلاليَّةً، ومُراعاةُ الجانِبِ اللَّفْظِيِّ في بُنْيَةِ النُّصوصِ غايَةٌ ساميَةٌ، خاصَّةً في الكَلامِ المُعْجِزِ.

المَعْرِفَةُ تَتَحَقَّقُ في الجُزْئِيّاتِ الظّاهِرَةِ، والمَلْمَحِيّاتِ البارِزَةِ

دلالَةُ اسْتِعْمالِ لَفْظِ ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ دون غيرِه من الألفاظِ:

آثَرَ النَّصُّ اسْتِعْمالَ لَفْظِ ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ دون ألفاظٍ أخرى، في بَيانِ أَنَّ أَخْبارَ أَهْلِ الكِتابِ، قَدْ عَلِموا صِدْقَهُ، وأَنَّهُ هُوَ المُبَشَّرُ بِهِ؛ وذلك أَنَّ المَعْرِفَةَ تَتَحَقَّقُ في الجُزْئِيّاتِ، والمَلامِحِ الظّاهِرَةِ،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/453.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/40.
(3) أبو حيان، البحر المحيط في التّفسير: 2/34، والراغب، تفسير الراغب: 1/338.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/40.

والمُفْرَداتِ البارِزَةِ، الَّتي يَسْبِقُها الجَهْلُ، فاسْتِعْمالُ لَفْظِ ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ يُبَيِّنُ أَنَّ صِفاتِهِ كانَتْ بارِزَةً مَعْروفَةً، ومن خِلالِ هَذِهِ الصِّفاتِ زالَ جَهْلُهُمْ بِهِ، وتَحَقَّقَتِ المَعْرِفَةُ، فهُمْ كانوا يَجْهَلونَ شَخْصَ النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ بَعْثَتِهِ، فلَمّا بُعِثَ ورَأَوا صِفاتِهِ عَرَفوهُ، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ﴾ [البقرة: 89]، أَيْ أَنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ الَّذي ذُكِرَ لَهُمْ نَعْتُهُ من قَبْلُ في التَّوْراةِ، فثَبَتَتْ سِماتُهُ في أَذْهانِهِم، فلَمّا ذُكِرَتْ تِلْكَ السِّماتُ في القُرْآنِ، عَرَفوا أَنَّهُ المَوْصوفُ في التَّوْراةِ؛ فهُمْ يَعْرِفونَ رِسالَتَهُ، وما جاء بِهِ من حَلالٍ وحَرامٍ، والأَرْضَ الَّتي يُبْعَثُ مِنْها، وقَوْمَهُ الأُمِّيِّينَ[1].

والعَلاماتُ البارِزَةُ الَّتي من خِلالِها تَحَقَّقَتْ مَعْرِفَتُهُمُ النَّبِيَّ المُرْسَلَ ﷺ كانَتْ مَعْروفَةً عِنْدَهُم، قال تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ﴾ [الأعراف: 157].

فائدةُ تقييدِ الكاتمينَ وعدمُ إطلاقِ الحكمِ:

بيانُ عدالةِ القرآنِ في الحكمِ على المخالفِ

ذكرتِ الآيةُ أَنَّ الكتمانَ صادرٌ عن فريقٍ لا عن جميعِ أهلِ الكتابِ: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾، وهَذا من كَمالِ العَدالَةِ والدِّقَّةِ والتَّحَرِّي، فالقُرْآنُ لا يُطْلِقُ أَحْكامًا تَهْضِمُ حُقوقَ النّاسِ، ولا يُسَوِّي في الحُكْمِ بَيْنَ المُخْتَلِفينَ، فهُوَ يَلْحَظُ الفَوارِقَ بدِقَّةٍ، وهَذا من لَوازِمِ الحَقِّ والسَّدادِ في تَقْسيمِ النّاسِ، حَيْثُ لَمْ يَقُلْ: (وإِنَّهُمْ)، بَلْ قالَ: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ﴾.

ففي الآيةِ تَخْصيصٌ لبَعْضِ الَّذينَ أوتوا الكِتابَ، بالعِنادِ في أَمْرِ القِبْلَةِ، وفي غَيْرِهِ ممّا جاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، وهُوَ أَيْضًا ذَمٌّ لَهُم، بأَنَّهُمْ يَكْتُمونَ الحَقَّ وهُمْ يَعْلَمونَهُ، وهَؤُلاءِ مُعْظَمُ الَّذينَ أوتوا الكِتابَ، فبَقِيَ فريقٌ آخَرُ يَعْلَمونَ الحَقَّ، ويُعْلِنونَ بِهِ، وهُمُ الَّذينَ آمَنوا بالنَّبِيِّ ﷺ من اليَهودِ، قَبْلَ عَبْدِ اللّهِ بْنِ سَلامٍ، ومِنَ النَّصارى مِثْلَ تَميمٍ الدّارِيِّ وصُهَيْبٍ[2]، وممّا يُؤَكِّدُ ذَلِكَ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطّابِ سَأَلَ عَبْدَ اللّهِ بْنَ سَلامٍ، فقالَ لَهُ: كَيْفَ هَذِهِ المَعْرِفَةُ

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/454.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/40.

المَذْكورَةُ في هَذِهِ الآيَةِ؟ فقالَ عَبْدُ اللّٰهِ: يا عُمَرُ، لَقَدْ عَرَفْتُهُ حينَ رَأَيْتُهُ، كما أَعْرِفُ ابْني، ومَعْرِفَتي بمُحَمَّدٍ أَشَدُّ من مَعْرِفَتي بابْني، فقالَ عُمَرُ: فكَيْفَ ذَلِكَ؟ فقالَ: أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسولُ اللّٰهِ حَقًّا، وقَدْ نَعَتَهُ اللّٰهُ في كِتابِنا، ولا نَدْري ما تَصْنَعُ النِّساءُ؟ فقَبَّلَ عُمَرُ رَأْسَهُ، وقالَ: وفَّقَكَ اللّٰهُ يا أبا سَلامٍ، فقَدْ صَدَقْتَ"[1].

والفريقُ المذكورُ خاصٌّ بمَنْ عانَدَ من عُلَماءِ أَهْلِ الكِتابِ فكتمُوا الحقَّ، ويُخْرِجُ الَّذينَ آمَنوا مِنْهُمْ، قالَ الزَّمَخْشَرِيُّ[2]: "اسْتِثْناءٌ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُم، أَوْ لِجُهّالِهِم، الَّذينَ قالَ فيهِمْ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة: 78]، والاسْتِثْناءُ هُنا مَعْنَوِيٌّ لا اصْطِلاحِيٌّ، وهُوَ بمَعْنى الإخْراجِ، إخْراجُ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُم، أَوْ لِجُهّالِهِمْ"[3]؛ فذكرُ الكاتِمين يُخرجُ المؤمنين، والأميين من أهلِ الكتابِ.

نكتةُ إظْهارِ مَا حقُّه الإضْمارُ:

النَّصُّ عَلى أَنَّ المَكْتومَ هُوَ الحَقُّ

أُظْهِرَ الاسْمُ في قولِه: ﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾، فلَم يَقُلْ: (لَيَكْتُمونَهُ) بالإضْمارِ؟ وذَلِكَ أَنَّهُ أَرادَ التَّنْصيصَ عَلى أَنَّ المَكْتومَ هُوَ الحَقُّ؛ لِيُبَيِّنَ سوءَ فِعْلِهِم، وفَسادَ طَوِيَّتِهِم، فلَوْ أَضْمَرَ لما أَفادَ الإضْمارُ التَّنْبيهَ عَلى حَقِّيَّةِ ما يَكْتُمونَهُ.

نُكتةُ حذفِ مفعولِ العلمِ:

فواصِلُ الآياتِ مُرْتَكِزٌ مُهِمٌّ، للإعْجازِ الصَّوْتِيِّ

يتعلَّقُ العلمُ بالمعلومِ لفظًا أو تقديرًا، وفي الآيَةِ أَطْلَقَ العِلْمَ، ولَمْ يُخَصِّصْهُ بشَيْءٍ، للتَّوَسُّعِ في تَقْديرِ المَحْذوفِ، فقَدْ يَكونُ تَقْديرُ المَحْذوفِ: (وهُمْ يَعلَمونَ أَنَّهُمْ آثِمونَ)، أَوْ: (أَنَّهُمْ ظالِمونَ) أو غَيْرِ ذلك مِمّا يَصْلُحُ أَنْ يَكونَ مَعْلومًا لَهُمْ في هَذا المَقامِ، ولَوْ كانَ المُرادُ: (وهُمْ يَعْلَمونَ أَنَّهُ الحَقُّ)، لكَوْنِهِ ذُكِرَ في سِياقِ الآيَةِ؛ فيَكونُ

(1) الهرري، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 3/29.
(2) الزّمخشري، الكشاف: 1/204.
(3) الطّيّبيّ، فتوح الغيب: 3/151.

حَذْفُهُ لدَلالَةِ المَقامِ عَلَيْهِ، من بابِ الإيجازِ، حَتَّى لا يَقَعَ في تَكْرارِ لَفْظٍ ذُكِرَ قَريبًا، وكَذَلِكَ لِلْمُحافَظَةِ عَلى فاصِلَةِ الآيَةِ المُتَناسِقَةِ مَعَ الآياتِ الأُخَرِ، والتَّناسُقُ الصَّوْتِيُّ في النُّصوصِ لَهُ أَثَرُهُ الجَمالِيُّ، ويَؤُولُ إلى تَنْبيهِ السّامِعِ عَلى مَضْمونِ النَّصِّ.

دَلالَةُ الجُمْلَةِ الحالِيَّةِ الاِسْمِيَّةِ عَلى التَّوْكيدِ:

قبحُ العنادِ المقترنِ بالعلمِ وبشاعةُ مقترِفِه

قَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ جُمْلَةٌ اسْمِيَّةٌ حالِيَّةٌ، جيءَ بها لتبْيانِ الحالَةِ الَّتي كَتَموا فيها ما كَتَموا، وهِيَ أَنَّهُمْ كَتَموهُ في حالَةِ العِلْمِ؛ حَتَّى لا يَقَعَ شَكٌّ في أَنَّهُمْ رُبَّما فعَلوا ذَلِكَ في حالَةِ جَهْلِهِمْ أَنَّهُ حَقٌّ، أَوْ كَوْنِهِمْ آثِمينَ، فنَصَّ عَلى أَنَّهُمْ فعَلوا ذَلِكَ قَصْدًا وهُمْ عالِمونَ، فهَذِهِ الحالُ مُؤَكِّدَةٌ؛ لأَنَّ الكِتْمانَ إِنَّما يَكونُ بَعْدَ العِلْمِ، وجيءَ بِهِ تَوْبيخًا لَهُمْ عَلى تَرْكِ العَمَلِ بمُقْتَضى العِلْمِ، وزِيادَةً في ذَمِّهِم، فإِنَّ ارْتِكابَ الذَّنْبِ عَنْ عِلْمٍ أَقْبَحُ وأَفْظَعُ بالنِّسْبَةِ لارْتِكابِهِ عَنْ جَهْلٍ[1]، قالَ الشِّهاب في حاشِيَتِهِ عَلى البَيْضاوِيِّ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾: "تَخْصيصٌ لِمَنْ عانَدَ، واسْتِثْناءٌ لِمَنْ آمَنَ"[2]؛ فعنادُهم صادرٌ عن علمٍ.

تَناسُقُ الأَلْفاظِ في الآيَةِ:

دلالةُ الشُّحْنَةِ الدَّلاليَّةِ لأَلْفاظِ الآيَةِ، وارْتِباطُها بالحَياةِ والمَصيرِ

هناك تَناسُقٌ بَيْنَ ألفاظِ الآيةِ، فالأَلفاظُ الواردَةُ بَيْنَها تَناسُبٌ في الدَّلالَةِ العامَّةِ، فالآيَةُ تَحْوي ألفاظَ: (الكِتاب، والمَعْرِفَة، والحَقّ، والعِلْم) مَعَ مُلاحَظَةِ تَكْرارِ لَفْظِ ﴿يَعْرِفُونَ﴾، وورودِ لفظَي (العِلم والمَعْرِفَة) في آيَةٍ واحِدَةٍ، وهَذا يَدُلُّ عَلى قَصْدِ التَّنْبيهِ عَلى هَذِهِ الأَلْفاظِ، لما تَزْخَرُ بِهِ من شحْنَةٍ دَلاليَّةٍ ذاتِ أَهَمِّيَّةٍ في الحَياةِ والمَصيرِ، فهُمْ لَدَيْهِمْ كِتابٌ، ولَدَيْهِمْ مَعْرِفَةٌ وعِلْمٌ بالحَقِّ، ولَكِنَّهُمْ يَكْتُمونَ هَذا الحَقِّ، والحَقُّ هُنا هُوَ المَعْلومَةُ الصَّحيحَةُ الثّابِتَةُ،

(1) زاده، حاشية على البيضاوي: 2/375.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 2/255.

فجَميعُ ألفاظِ الآيَةِ تَتَمَحْوَرُ حَوْلَ العِلْمِ ومَغْبَّةِ كِتْمانِهِ، وفي الآيَةِ تَكَرَّرَتْ صيغَةُ الأَفْعالِ الخَمْسَةِ (يَعْرِفونَهُ، يَعْرِفونَ، لَيَكْتُمونَ، يَعْلَمونَ)، وهَذا مِمّا يُعْطِي زِيادَةً للتَّناسُقِ اللَّفْظِيِّ، وهَذا التَّناسُبُ والتَّماثُلُ في مَوْضوعِ الألفاظِ، وصِيَغِها الصَّرْفِيَّةِ يَخْلَعُ عَلى النَّصِّ قُوَّةَ البِناءِ ويَزيدُ في التَّماسُكِ بَيْنَ مُفْرَداتِهِ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المَعْرِفَة والعِلْم:

العِلْمُ أَحْكامٌ تَتَكَوَّنُ في القَلْبِ، بأَسْبابٍ ورَوافِدَ، والمَعْرِفَةِ تَمْييزٌ يَقومُ عَلى مَلامِحَ ظاهِرَةٍ للأَشْياءِ

الفَرْقُ بَيْنَ المَعْرِفَةِ والعِلْمِ، أَنَّ أَصْلَ المَعْرِفَةِ تَمْييزٌ يَقومُ عَلى مَلامِحَ ظاهِرَةٍ للأَشْياءِ، أَخْذًا مِن اسْتِعْمالِ التَّرْكيبِ في المَلامِحِ الظّاهِرَةِ الَّتي تُمَيِّزُ الشَّيْءَ عَنْ غَيْرِهِ، وهَذا أَساسُ أَنَّ "المَعْرِفَةَ: العِلْمُ المُتَعَلِّقُ بالمُفْرَداتِ، ويَسْبِقُهُ الجَهْلُ، ولذا لَمْ يوصَفِ اللَّهُ تَعالى بالمَعْرِفَةِ، أَمّا العِلْمُ فأَحْكامٌ تَتَكَوَّنُ في القَلْبِ، من رَوافِدَ وأَسْبابٍ مُحَدَّدَةٍ، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ [محمد ﷺ: 30]، وقَوْلُهُ: ﴿فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يوسف: 58]، وفي هَذا السِّياقِ يُلْحَظُ أَنَّها مَعْرِفَةٌ بالسّيما والمَلامِحِ، ولَحْنُ القَوْلِ يُؤْخَذُ مِنَ الأَلْفاظِ المَسْموعَةِ.

وقَدْ عَدَلَ عَنْ أَنْ يُقالَ: (يَعْلَمونَهُ) إلى ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾، لأَنَّ المَعْرِفَةَ تَتَعَلَّقُ غالِبًا بالذّواتِ والأُمورِ المَحْسوسَةِ[1]، ويَسْبِقُها الجَهْلُ، أَمّا العِلْمُ فحُكْمٌ يَتَكَوَّنُ من خِلالِ رَوافِدَ وأَسْبابٍ حَتّى يَكونَ كالشَّيْءِ المُشاهَدِ الثّابِتِ؛ فلذا اسْتَعْمَلَ المَعْرِفَةَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ: لأَنَّهُمْ عَرَفوهُ من خِلالِ مَلامِحَ وعَلاماتٍ، واسْتَعْمَلَ العِلْمَ مَعَ الحَقِّ، لأَنَّهُ حُكْمٌ ثابِتٌ لَدَيْهِمْ عَلِموهُ من خِلالِ النَّظَرِ في كُتُبِهِم، وهَذا من بَلاغَةِ الاسْتِعْمالِ الدَّقيقِ للأَلْفاظِ في كِتابِ اللَّهِ المُحْكَمِ البَليغِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/40.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني، سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 2 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-53-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 2 : سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-53-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984852 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»